مناقشات ٢

خدعة النص*

ما الذي نعنيه بالنص؟

وما هي حدود قراءته؟

ولماذا يتردد هذا المصطلحُ في الآونة الأخيرة كثيراً في القراءات المختلفة، فأصبحنا نسمع ونقرأ كلمة «نص» بشكل لافت بدءاً من اقترانها بالفنون الإبداعية وانتهاءً بتوصيف هذا المصطلح والبحث فيه بشكل مستقل («استراتيجية النص»، «نظرية النص»، «نقد النص»، «حقيقة النص»،... الخ) بحيث «لم يعد مجرد أداة للمعرفة بل أصبح هو نفسه ميداناً معرفياً مستقلاً، أي مجالاً لإنتاج معرفةٍ تجعلنا نعيد النظر فيما كنا نعرفه عن النص والمعرفة في آن»[1].

وأخيراً وصلنا إلى «موت النص»، الذي أعلنه الأستاذ محمد أبو الفضل بدران، بعد أن أعلن غيرُه «موتَ المؤلف»، لندخلَ في مخاضات كثيرة تحتاج إلى وقفات دقيقة لنحدد حقيقةَ ما نقرأ وحقيقةَ ما نكتب قبل أن نُعلِن موتَ الأشياء جميعاً، فلا نجد ما نكتب عنه أو ننتجه!

والسؤال الذي أطرحه: هل مصطلح «النص» خدعة؟ وهل نحن مخدوعون في هذا الحقل الجديد الذي أسميه «الحقل النصّي»؟

لا أتصور أنّ الأمر مجرد خدعة. ولكنّ كثرة المصطلحات والمسميات والتهويمات أحياناً تحيلنا على الإقرار بخدعة النص. إلا أن القراءة المعمقة تحيلنا على حقيقة النص بشكل عام وتجعلنا نختلف مع الأستاذ أبو الفضل في أشياء ونتفق في أشياء:

ـ فلا بد، أولاً، من تحديد المصطلح وتخصيصه وإلاّ وقعنا في التعميم، والتعميمُ أحياناً يوقع في مطبّ يبعدنا عن الحقيقة...

ـ ثم إنّ فكرة «موت النص» تتناقض مع كل ما طرحه الدكتور أبو الفضل. فهو يقول «بموت النص»، وفي الوقت نفسه يجعل من «النص» متّكأً له لإنتاج نصه النقدي. ورغم أنّ الفكرة التي يسعى إلى إثباتها خلال تقسيماته (اللانصّ ـ النصّ الموجود ـ النصّ الظل) تنطلق من منطق جديد لفهم النص، إلا أنّ هذه التقسيمات تحتاج إلى مزيد من التدقيق. فالنص عنده يعني النصَّ الموجود بين اللانص والنص الظل، أو هو النصّ وما قبله وما بعده. ويعيد الدكتور أبو الفضل التسميات للمعنى الواحد:

اللانص = ما قبل النص = النص المقترح.

النص = النص الموجود.

النص الظل = النص المفقود.

ونراه تارةً يُطْلق على الحالة التي تسبق إنتاج النص بـ «اللانص»، ويعيد تارةً أخرى تسميتها بـ «النص/اللانص» أو «النص المتخيل». وهذا ما أربك تسمياته ومصطلحاته حول مفهوم النص، فلم نعد نعرف النص الذي يسعى الى الحديث عنه: أهو النص الموجود المجسَّد على الورق، أو النص/اللانص أي النص المتخيل، أم النص الظل/النص المفقود؟ فكلمة «نص» مقترنة بالحالات جميعاً، الأمر الذي يحيلنا على وجود النص في الحالات الثلاث وينفي فكرةَ «موت النص». وأقترح تسميات أخرى كنت اشتغلتُ عليها في كتابي الذي سيصدر قريباً، وعنوانه: **وانجزت جنوني** (وهو

---

* ـ مناقشة لبحث محمد أبو الفضل بدران: «النّصّ، والنّصّ المضاد، والنّصّ الظل»، الآداب ٢/١ (كانون الثاني ـ شباط) ١٩٩٨.

١ ـ علي حرب: **نقد النص** (بيروت: المركز الثقافي العربي، ١٩٩٣)، ص ٧.

دراســـة في رواية **بينمـا الزمن يـفكر في أمـور أخـرى**، للكاتب السويدي نيكلس رودستروم). وهذه التسميات هي:

الفكرة المثال ـــــ النصّ الموجود ـــــ النص المثال

وأقـصـد بـ «الفكرة المثـال» حـالةَ التَّـخـيّل التي تسـبق التجسيد؛ فـهي البذور الأساس للنص وليست نصاً، لأنها ما زالت ضـمن هيـولى التـفكيـر ولـم تتـجـسـد في إطار إبداعي محـدد. وحين تتجسد في قصيدة أو قصـة أو نقد، يمكننا أن نطلق عليـهـا اسم «النص». وهذه الحـالة [أي الفكرة المثـال] تختلف من كاتب إلى آخر لأنها مرتبطة بأشياء خاصة بهذا المبدع أو ذاك (كالثقافة، والبنية المعرفية)، وهي ـ شـأنها شأن البصمات ـ لا يمكن أن تتشابه بين إنسان وآخر.

ويمكن أن نوضح الأمر أكثر. فلنأخذْ موضوعاً معيناً في أيّ حـقل من حـقـول الإبداع أو المعـرفـة، ونطلبْ من عـدد من الكتّاب أن ينتـجـوا نصـاً مـوجـوداً حـوله. فـسـوف تتـعـدد النصـوص الموجـودة بعـدد الكتّـاب الذين عـالجـوها، رغم أنّ الفكرة المثال واحدة:

بينما يعتمد النصُ المثالُ على الفكرة المثال أي:

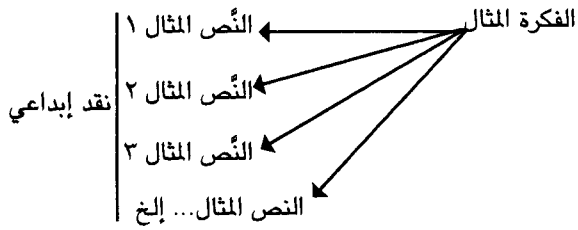

فـالنص المثـال لا يسـاوي النص الظل، لأن النص الظل مـسـتند إلى النص الموجـود في إنتـاجـه، وأمـا النص المثـال فـمسـتند إلى الفكرة المثال. إلا أن النص الموجـود يقـوم بدور الحافز لإعادة إنتاج الفكرة المثال ضمن نصه المثال، لأن المثال هو الذي لم يقله المؤلفُ.

وهذا التعامل يتقاطع مع بعض ما دعا إليه علي حرب حين يقول: «فلا ينبغي التعامل مع النصوص بما تقوله وتنص عليه أو بما تعلنه وتصـرِّح به، بل بما تسكتُ عنه ولا تقـوله، بما تخفيه وتستبعده»(*). فوجهة نظرنا تتقاطع مع هذا الكلام في نقطة البحث عن المسكوت عنه، وتختلف في نقطة إغـفـال مـا تقـوله النصـوص. فكلمـات: «إغـفـال»، «إلغـاء» «مـوت»... الخ كلمات لا تنطبق على أسلوبية الطرح؛ فما تقوله النصوصُ هو الحـافـز للوصـول إلى مـا سكتت عنه. لذلك يمكن القـول إنّ النص الظل الذي تحدث عنه أبو الفضل بدران يساوي النقد الأكاديمي، أما النص المثال الذي تحدثتُ عنه فيساوي النقد الإبداعيَّ أو النصَّ الموازي للنص الإبداعي، بحيث يكون النص الموجود حافزاً دون أن يساهم في تشكيل النص المثال. ويمكن إجراء مقارنة بين النقد الأكاديمي والنقد الإبداعي:

ـ النقـد الأكـاديمي لا يسـتطيع الخـروج عن بنيـة النص المكتوبة، وإنما يلتزم بها حرفياً. فـهو تابعٌ لبنية النص، وليس مستقـلاً، ولذلك يمكن تشبيـهـه بالظل لأنه يعتمـد على النص الموجود ويتحدد برؤيته فقط.

ـ الناقد المبدع هو الذي لا يلتزم بالنص ولا ببنيته، وإنما يمثل النصُّ عنده بنيةً مستقلةً عن بنية النص الموجود. ولذلك يعتمد على الفكرة المثال في تحديد مساره وبنيته النصية، فيُنتج نصاً ثالثاً مستقلاً غير تابع، وينتج رؤيا لم يقلها النصُّ الموجود.

ـ الناقد الأكاديمي يعتمد على النص الموجود انطلاقاً من انتـهـاء إنجـازه واكتـمـال بنيتـه. ولذلك لا يتـعامل مع التـوتر الداخلي في النص والاستبصار والكشف النصي.

ـ الناقد الإبداعي يعتمد على الفكرة المثال بوصفها بنيةً لم تُنجَزْ بعدُ ولم تتجسدْ كما يجب. ولذلك يخلق حالةً من التوتر ويتجه إلى حالة الاستبصار في النص، بحيث يقوم على تنظيم العلاقات الداخلية في النص.

وهذا الأمـر يقـودنا الى القـول بأنه لا توجـد سلطةٌ مطلقـةٌ للنص، ولا يوجـد نصٌّ مطلق لا في الفكرة المثال ولا في النص الموجـود ولا في النص المثـال. فكل النصـوص هـي نصـوص نسبية بعضـها بالنسبة الى بعضـها الآخر والى كتابها. فالنص مـهـما كـان ترتيبُهُ هو مـحـاولةٌ أوليةٌ لإنتاج مـحـاولات مـختلفة تسـعـى الـى الكمـال؛ وفي سـعـيـهـا الى الكمـال تكشف عن حالاتها الداخلية التي تحدد مسارها.

بهيجة مصري إدلبي

حلب

* ـ علي حرب: المصدر السابق، ص ١٥.